صفحة نادرة في تاريخ مكتبة الاسكندرية القديمة
أو قصة عجيبة حول مجموعات مكتبة الاسكندرية القديمة

إعداد
أ.د. شعبان عبد العزيز خليفة

كانت مكتبة الاسكندرية القديمة لغزاً في قيامها وكانت لغزاً في اختفائها، ولكنها يقيناً كانت اعظم مكتبات الدنيا في العصور القديمة والوسطى وردحاً طويلاً من العصور الحديثة. ومن الثوابت التي توصلنا إليها بعد لأي ومشقة أن افتتاحها كان سنة ٢٨٥ ق.م ومن ثم يمر على هذا الافتتاح في عامنا هذا ٢٠١٥ ثلاثة وعشرون قرناً كاملة.

وإذ كان رواية حرق يوليوس قيصر للمكتبة صحيحاً (٤٨ ق.م) أيا كانت الظروف التي ادت إلى ذلك؛ فإن المكتبة تكون قد عمرت نحو قرنين ونصف من الزمان، وإذا كان المسيحيون بقيادة ثيوفيلوس (بطريرك الاسكندرية) قد أحرقوها (٣٩١م) فإن المكتبة قد عمرت نحو سبعة قرون (٦٧٦ سنة بالتحديد)؛ وإن كان المسلمون بقيادة عمرو بن العاص (فاتح مصر) قد احرقوها سنة ٦٤٢م فإن المكتبة تكون قد عمرت نحو عشرة قرون أي ألفية (٩٢٧ م تحديداً). وإن كانت المكتبة قد شاخت وتقدم بها العمر وتبددت شذر مذر فإن ربنا تكون قد عمرت أطول من الألفية.

ورغم مئات القطع التي قرأتها وبحثتها واطلعات عليها حول مكتبة الاسكندرية القديمة في عمرها المديد ورغم القصص والحكاوى التي سردت وحكيت على هامش تاريخ هذه المكتبة العريقة مثل قصة الحب التي نشأت بين الفيل وبائعة الورد أمام المكتبة، حيث كانت هناك بائعة زهور يونانية تبيع الورود والزهور في كشك لها أمام المكتبة وكان هناك فيل -احد وسائل الانتقال آنذاك إلى جانب الجمال والحمير وغيرها- يمر على الفتاة كل صباح ويحييها بخرطومه تحية الصباح فتهديه كل يوم وردة؛ ولكن بعد مرور الأيام أغلق الكشك واختفت الفتاة وكان الفيل يمر ولا يجدها، فأحس بأنها ماتت فحزن عليها حزناً شديداً ومات ألماً وكمداً.

رغم هذه القصص والحكايات التي فاضت بها الكتابات عن مكتبة الاسكندرية القديمة، إلا انه وقعت في يدي دراسة عن مكتبة الاسكندرية من اعداد روبرت ه. بلاكبورن، مدير مكتبات جامعة تورنتو بكندا؛ تتضمن وقائع مثيرة وخيالات مفيدة أريد أن اشرك مجتمع المكتبات العربية فيها ولنمهد للقصة العجيبة ببعض الخلفيات عن مكتبة الاسكندرية القديمة حتى تزرع القصة العجيبة في سياقها العلمي والتاريخي والمكتبي.

وملخص القصة الغريبة العجيبة تقول بأن يوليوس قصير عندما وصل إلى مصر سنة ٤٨ ق.م في تعقبه لاحد خصومه الالداء، اقصى شقيق كليوباترا الاصغر عن الحكم ونحّاه (بطلميوس الثاني عشر) ونصب كليوباترا ملكة على البلاد، ومن خلال القوة والدبلوماسية غدت كليوباترا (ملكة مصر). واعترافا منها بالفضل وباعتبار يوليوس قيصر باحثاً ومؤلفاً ودارساً، اهدته الملكة مكتبة الاسكندرية الملكية أكبر واعظم مكتبات العالم كماً ونوعاً وإحدى عجائب الدنيا في ذلك الوقت. وقد قبل الرجل الهدية شاكراً وكانت مجموعات المكتبة تبلغ في ذلك الوقت نحواً من ٧٠،٠٠٠ لفافة بردي؛ مخطوطة بخط اليد، وقد تمت تعبئة هذه اللفافات جميعاً وحملت على السفن الرومانية إلى روما ولكن قبل إبحار الاسطول إلى روما بليلة واحدة شب حريق هائل في الميناء دمر كل السفن وكل ما تحمله من لفافات ولم يتم انقاذ اي منها وكانت تلك هي نهاية المكتبة التي عمرت بذلك كما ألمعت نحو قرنين ونصف من الزمان.

هذه القصة إذا تعقلناها في سياقها العام فإنها تقترب من الخيال أكثر من الواقع وإن انطويت على بذرة الحقيقة الكامنة خلف كل اسطورة وتنطوي على كثير من التناقضات والخروج عن الواقع. وطالما ان كليوباترا هي بطلة هذه القصة فإنها بالتالي تكون محور اهتمامنا في هذه الافتتاحية.

لقد كانت كليوباترا عنيدة ذات ثقافة عالية وليس من السهل أن تفرط في مجموعات المكتبة التي ركمها اجدادها عبر ٢٥ عقداً من الزمان وقدموا كل ما هو غال ونفيس وثمين وكل ما هو خبيث وماكر وغير اخلاقي في سبيل تكوين مجموعات المكتبة. تلك المكتبة التي جعلت من الاسكندرية عاصمة للثقافة والفكر إلى جانب مركزاً للتجارة العالمية بعامة والعالم الهللينى خاصة، والوريث الطبيعي للعاصمة اليونانية أثينا. وكانت كليوباترا تعلم علم اليقين أن هذه المكتبة هي من أهم ركائز الحكم ورمزاً شديد الأهمية يفوق كل المكتبات الملكية القائمة آنذاك في جميع انحاء العالم.

وعلى الجانب الآخر كان يوليوس قيصر رجلاً ذاعلم وثقافة وباحثاً في التاريخ والسياسة وقارئاً نهماً وكان شديد الاهتمام بالمكتبات وهو صاحب تصميم (المكتبة الثنائية) ذات الجناحين: جناح المجموعات اللاتينية وجناح المجموعات اليونانية. وكان الرجل مؤلفاً صاحب انتاج فكري متميز إلى جانب كونه سياسياً موهوباً بارعاً وجنرالاً مقداماً في ساحة الوغى والحرب. ومن المحتمل أن يكون الرجل يعرف القيمة الحقيقية لمجموعات مكتبة الاسكندرية ولو كان الرجل قد أصر على نقل المكتبة إلى روما. فلابد أن يكون ذلك بعد تعبئة وتغليف المجموعات بدقة وعناية وبطريقة منظمة حتى تنقل بأمان وسلامة إلى روما. وتعبئة وتغليف الـ٧٠٠،٠٠٠ مخطوط يحتاج يقيناً إلى شهور طويلة أطول بكثير من المدة التي كان من المخطط أن يقضيها الرجل في مصر.

وكيف لحريق هذا العدد من السفن أن يأتي على كل السفن وعلى كل ما تحمله دون أن تفلت سفينة واحدة أو حمولة واحدة أو حتى مخطوطة واحدة من هذا المصير المفزع حتى ولو كان الحريق مبرراً ومخططاً بدقة ومنفذاً بإمعان. وحيث حدثناً زينفون – الذي عاش قبل هذا الحادث بثلاثة قرون- عن كميات كبيرة من المخطوطات التي تحطمت عنها سفن يونانية كانت تحملها وقد قذفت بها الأمواج إلى الشاطئ، فلماذا لم تقذف الأمواج بكتب مكتبة الاسكندرية إلى الشاطئ. ومن اليسير على أي ببليوجرافي أو أمين مكتبة محنك عاش بين الكتب وبين جدران المكتبات بضعة عقود أن يشعر بأن هذه القصة العجيبة لا يمكن قد سارت بتلك الطريقة التي قصت بها، ولابد وأن يحس باحساس أمين مكتبة الاسكندرية وهو يضع بنفسه نهاية تلك المكتبة التي عشق ترابها وتفانى في خدمة مجموعاتها. وفي قناعتي الشخصية أن أمين المكتبة اتخذ من التدابير والحيل ما يحول دون تنفيذ أوامر كليوباترا –وإن كانت قد صدرت بالفعل على الأقل جزئياً إن لم يكن كلياً.

لعل اعظم من كتبوا عن مكتبة الاسكندرية القديمة إ.أ. بارسونز الذي جاب الدنيا بأسرها وجمع كل ما كتب عن مكتبة الاسكندرية القديمة حتى ١٩٥٠ ووضع في كتابه ما استطاع من معلومات عن المكتبة من بداياتها الأولى حتى نهاياتها المحتومة ولم اجد عنده هذه القصة بهذه الكيفية والصورة وهو العمدة الذي يرجع إليه دائماً في هذا الصدد: ولعل أقرب صورة لهذه القصة العجيبة هي تلك التي وردت عند ليفي المؤرخ الشاب الذي عاصر يوليوس قيصر وكب رائعته (تاريخ روما) في ١٤٢ مجلداً لم يصلنا منها إلا القليل وقد نقل عنه سنيكا (من مجلد ١١٢) قوله بأن " ٤٠،٠٠٠ كتاب" من مكتبة الاسكندرية القديمة قد احترقت في الميناء. ولعل الرقم ٤٠،٠٠٠ كتاب هذا يقارب الحقيقة أكثر من رقم ٧٠٠،٠٠٠ كتاب هي كل مقتنيات المكتبة.

وقبل أن نبدأ بإمساك هذا الخيط الرفيع نلقي بعض الضوء على مسيرة المكتبة قبل هذا الحادث. ذلك أن الاسكندر الأكبر الذي امر ببناء مدينة تحمل اسمه في كل بلد يفتحه ويأمر ببناء مكبة في كل مدينة منها

كان قد عسكر هو وجيشه في مصر شتاء ٣٣٢-٣٣١ ق.م وأثناء ذلك اختار موقعاً لمدينة اسكندرية مصر بالقرب من مصب النيل الغربي (رشيد الآن). وقد رأى في المدينة الجديدة ميناءً هاماً على مفترق طرق التجارة العالمية من اسبانيا إلى الهند ومن افريقيا إلى الشمال؛ ويقال أنه هو الذي وضع تصميم المدينة باحيائها وشوارعها: شوارع طولية وشوارع عرضية متعامدة عليها وعرض الشارع لا يقل عن ١٠٠ قدم. ووضع تصميم الفنارة التي تقام على جزيرة فاروس على بعد ٢ كيلومتر من الشاطئ ولتكون أعلى فنارة في العالم؛ وعلى أن تكون مباني المدينة فخمة من الحجر والرخام لتحل محل فخامة أثينا المتداعية المتهالكة؛ وأ، تقام بها مكتبة تكون المركز الفكري في العالم ومحط رحالي العلماء والباحثين من كل حدب وصوب متأثراً في ذلك بمكتبة استاذه ارسطو الذي تلقى العلم على يديه في أثينا، وانطلق الاسكندر بعد ذلك إلى بلاد الشام ثم بلاد فارس ثم الهند غازياً منتصراً ولكنه مات هناك سنة ٣٢٣ ق.م في سن الثالثة والثلاثين؛ وعاد جثة مرصعة بالذهب والماس لكي يدفن اغلب الظن في مصر.

قسمت الامبراطورية التي خلفها الاسكندر الأكبر بين كبار جنرالاته فنال بطلميوس المقدوني ملك مصر اغنى مناطق الامبراطورية. وقد خلع على بطلميوس لعب (نصف شقيق الاسكندر) وكان قد تعلم هو الآخر على يد ارسطو في أثينا. وكان نائباً للاسكندر (٣٢٣-٣٠٥ ق.م) ثم ملكاً على مصر (٣٠٥ -٢٨٣ ق.م) وقد بلور بطلميوس وجسد قوة وعظمة مصر العسكرية والتجارية واستمر في بناء فخامة ومكانة العاصمة فقام بالقرب من الشارع الرئيسي في تقاطع الحي اليوناني المقدوني ببناء (السوما) المقبرة (الموسيليوم) الرخامية الفخمة الخاصة بأسرة البطالمة وذلك حول المقبرة الذهبية للاسكندر الأكبر، ودعا العلماء والباحثين المشاهير للقدوم إلى الاسكندرية وكان من بينهم إقليدس الرياضي الشهير وديمتريوس الفاليري والذي لعب دوراً محورياً في قضيتنا العجيبة هذه.

ولد ديمتريوس في فاليرون التي ينتسب إليها وهي إحدى موانئ أثينا وكان هو الآخر احد تلاميذ ارسطو المتميزين وصديقاً مقرباً لثيوفراستوس خليفة ارسطو في اللسيوم (مدرسة ارسطو الفلسفية الشهيرة) وربما كان زميل دراسة لبطلميوس. ولما كان إدارياً قديراً وحكيماً فقد عين حاكماً على اثينا طيلة عشر سنوات قبل أن يقصى عنها بواسطة احد الغزاه للمدينة سنة ٣٠٧ ق.م وفي مصر لمع نجم الرجل وغدا شخصية مؤثرة ومستشاراً وناصحاً لبطلميوس الأول ملك مصر، وربما يكون هو الذي دفعه إلى تأسيس جامعة أو اكاديمية داخل مكتبة الاسكندرية للدراسات المتقدمة والبحث العلمي.

وقد بدأ العمل بمتحف ربات الفنون السبع وهو مبنى ضخم من الرخام ذو قاعات فسيحة ذات منحوتات ونقوشات، وقاعات للمحاضرات وأروقة معمدة بالاضافة إلى اجنحة إقامة لاقامة مائة ضيف ملكي إلى جانب صالات طعام تسع اعداداً أكبر. وكان ضيوف الملك باحثون ودارسون واساتذة وعلماء عظماء يدعون للدرس والبحث والتأليف والتدريس بالمجان والاعفاء من الضرائب إلى جانب مخصصات ومكافآت مالية سخية. وقد أضاف الرجل حديقة نباتية وحديقة حيوانات ومرصداً فلكياً وأسس مكتبتين.

وكانت المكتبة الصغيرة (الابنة) تفتح للعامة في السرابيوم الذي كان مركز مجتمع كبير في الحي المصري، والذي كان متعدد الاجنحة التي تتفرع من المعبد الضخم الذي كرس لعبادة سيرابيس وهي العقيدة التي اخترعها بطلميوس حتى يجمع الاغريق والمصريين في عقيدة وعبادة واحدة.

أما المكتبة الرئيسية (الكبرى أو الأم) فقد كانت خاصة بالدارسين الباحثين مفتوحة أمام الجميع من ذوي المؤهلات. وكان للمكتبة التي تتخللها قاعات البحث والدرس ذات مبنى ضخم خاص مبنى من الرخام وينطوي على عشر قاعات كبيرة فسيحة تنطوي على رفوف أو فتحات عيون الحمام او حاويات الكتب. وكان مبنى المكتبة يضم قاعات بحث فردية وجماعية ومخازن كتب وورش عمل. وكان هناك بلا شك منسخ أو مناسخ للكتب مزودة بالمواد والادوات اللازمة للنسخ. وكانت هناك ممرات ذات اعمدة تربط

المكتبة بقاعات المحاضرات والدروس ومتحف ربات الفنون والقصر الملكي. وكانت كلها على مسافة كبيرة معقولة من شاطئ البحر.

وكان ديمتريوس الفاليري هذا العبقري الذي وضع هذا التصور أو اشرف على تنفيذه، وقد كلف ودعم من قبل بطلميوس بجمع كل الكتب الهامة من أي مكان في الدنيا والتي كتبت باليونانية. وقد نفذ الرجل المهام الموكلة إليه بكل همة وعبقرية. وقد جاب وكلاؤه أسواق الكتب في أثينا ورودس، كما جاء الموردون من كل حدب وصوت حاملين الكتب. وكانت السفن التي ترسو في ميناء الاسكندرية يصير تفتيشها للبحث عن كتب؛ وكانت الكتب التي توجد إن تشترى وإما تصادر وإما تنسخ وتقدم لاصحابها النسخ فقط وتؤخذ الاصول للمكتبة.

ومن أجل الحصول على ترجمة يونانية من التوراه اليهودية كان لابد من الرجل أن يغري الكاهن اليهودي الاعظم في بيت المقدس المدعو إليعازر كي يعيره النسخة الأصلية من التوراه لتتم الترجمة منها في الاسكندرية (المعروفة بالترجمة السبعينية)، في قاعة شيدت خصيصاً في الاكاديمية لهذا الغرض. وسواء كان ديمتريوس أو خلفه هو الذي دبر شراء مجموعات المكتبة الخاصة بارسطو والتي كانت ذات اهمية خاصة، حيث بنيت على مجموعاتها قاعدة عريضة جداً للبحث والدرس، وتذكر المصادر أن المكتبات الشخصية لكثير من العلماء والباحثين قد تم اقتناؤها هنا في مكتبة الاسكندرية.

وفي خطاب آريستياس الشهير نجد فقرة هامة مؤداها أن بطلميوس سأل ديمتريوس "كم ألف كتاب في المكتبة ؟" فأجاب: "أكثر من ٢٠٠،٠٠٠ كتاب أيها الملك وسوف ابذل قصارى جهدي لأجمع الباقي وأصل بالمجموع إلى ٥٠٠،٠٠٠ كتاب" بيد أن ديمتريوس لم يصل إلى هذا الرقم؛ ذلك أنه رغم نصحه للملك بألا يعين ابنه الثاني خليفة له، إلا انه فعل وتولى بلطميوس الثاني فيلادلفوس عرش مصر ٢٨٣ ق.م ومن ثم نفى ديمتريوس إلى صعيد مصر، حيث عضه ثعبان ومات في نفس السنة.

وقام بطلميوس الثاني فيلادلفوس بتعيين استاذه زينوديتس مديراً للمكتبة واستمرت المجموعات في النمو والتزايد، ومع النمو والتعاظم ركز زينوديتس الجزء الأكبر من همه على العمل الأساسي وهو تصنيف المجموعات وفرزها وتحرير وتوثيق المخطوطات الأساسية. وربما كان هو أول من رتب المؤلفين هجائياً في اي مكتبة. وقد وضع أحجاماً قياسية معيارية للفافات بحيث عرض اللفافة ٢٥-٣٠ سم وطولها ٦-٧متر؛ وإن كان بعض اللفافات اصغر أو أكر من ذلك الحجم المعياري. وكانت بعض اللفافات توضع في أغلفة واقية (اكياس من الكتان).

وكانت بعض اللفافات تكتب على وجه واحد وهو الأمر العادي- وكان البعض على قلته يكتب علة الوجهين. وكانت اللفافة الواحدة احياناً تضم عدة أعمال للمؤلف الواحد أو لعدة مؤلفين. وكانت بعض اللفافات تضم فصلاً واحداً من عمل كبير ومن ثم يحتاج مثل هذا العمل إلى عدد كبير من اللفافات، ولا مندوحة من القول أن بعض الأعمال كانت تقع في عدة نسخ لناسخين مختلفين، نسخ منها بدرجات متفاوتة من الدقة والاكتمال، ونسخ للمقابلة والمقارنة، ونسخ للتعليم ونسخ من الضروري إعادة كتابتها وتصحيحها. وكان الامر عملا مضنياً ضخماً.

وكان كاليماخوس هو خليفة زينودوتس، وهو كاليماخوس من كيرين (الكيريني)؛ والذي عمل مديراً للمكتبة من ٢٦٠-٢٣٥ ق.م وكان مؤلفاً لما يربو على ٨٠٠ كتاب شعراً ونثراً وكان في الجملة عالماً لغوياً ولعل أهم اعماله المتصلة اتصالاً وثيقاً بالمكتبة هو الفهرس المعروف بعنوان (بيناكيس) أي القوائم، وهو الحصر النقدي التحليلي البيوجرافي لكل مقتنيات المجتبة في ١٢٠ مجلداً. ويصفه المكتبيون بأنه كثر من مالفيل ديوي في زمانه؛ وهو الذي اخترع فهارس المكتبة والتي ربت مقتنياتها على نصف مليون مجلد في زمانه.

وكانت موزعة على النحو الآتي:

٤٩٠،٠٠٠ لفافة في المكتبة الأم
٤٥،٠٠٠ لفافة في المكتبة الابنة

٥٣٥،٠٠٠

أو

٤٢،٨٠٠ لفافة مصنفة في السيرابيوم مرتبة موضوعياً
٩٠،٠٠٠ لفافة مصنفة في المكتبة الكبرى
٤٠٠،٠٠٠ لفافة غير مصنفة في المكتبة الكبرى (الرئيسية)

٥٣٢،٨٠٠

والخلاف البسيط بين الرقمين لايعدو أن يكون فارقاً زمنياً لايقدح في الصورة العامة التي كانت عليها زمن كاليماخوس. كما أن المعنى الدقيق لمصطلح مصنف وغير مصنف غير واضح في المصادر ولا يجب أن يفهم بالمعنى العصري الذي نحن عليه الآن.

لقد وزع كاليماخوس مفرداته على عشرة موضوعات عريضة وداخل كل موضوع تم التفريع إلى موضوعات أصغر، ومن ثم بلغ العدد الكلي للموضوع ١٢٠ ويبدو أن كل موضوع قد خص بمجلد على حده. تحت الموضوع الواحد تم ترتيب للمؤلفين هجائياً وتحت كل مؤلف رتبت اعماله أيضاً هجائياً. وقد اعطى كاليماخوس عن كل مؤلف نبذة بيوجرافية؛ وبعد عنوان العمل نصادف وصفاً للعمل وتعليقاً على الاختلافات بين النسخات؛ وتقدم الكلمات الأولى من النص والكلمات الختامية في النص ثم ينتهي الوصف بالعدد بالدقيق لسطور العمل. وقد تطور هذا الفهرس ليصبح عملاً شاملاً للتسجيلات الببليوجرافية ودليلاً كاملاً إلى مقتنيات المكتبة ولسوء الحظ لم يصلنا من هذا الفهرس إلا قطع صغيرة محدودة متضمنة في كتابات أخرى.

بعد عدد محدود من مديري المكتبة الذين نعرف اسماءهم ومدد عملهم على وجه اليقين استمرت المكتبة في النمو والاتساع واقتنت بلغات أخرى غير اليونانية وفي ظل مديرين للمكتبة ضاعات منا اسماؤهم.

وعندما حل يوليوس قيصر في مصر سنة ٤٨ ق.م ليتعقب خصمه اللدود – ابنه بالتبني بومبي، كانت مصر في ذلك الوقت محمية رومانية تشتعل فيها النزاعات والخصومات العائلية، ذلك كليوباترا بعد أن رشحها ابوها بطلميوس الحادي عشر لخلافته على العرش، قام انصار اخيها الاصغر بتنحيتها وتنصيبه على الملك باعتباره بطلميوس الثاني عشر على اعتقاد من هؤلاء الانصار أن الصبي الصغير سيكون أسلس قيادة بالنسبة لهم. وكانت كليبواترا قد عادت من سوريا على رأس جيش كبير – وكانت في سن السابعة عشرة- إلى مصر لتسوية الأمر. وكما سمعت بأن يوليوس قيصر قد استقر به المقام في قصر الحكم بالاسكندرية اهدته هدية ثمينة عبارة عن سجادة ملفوفة هي بداخلها –شقاوة بنات- وعندما تم فض السجادة توصلت الاميرة والجنرال إلى اتفاق وشروط غدت بعدها كليوباترا ملكة مصر.

وفي ذلك الوقت كانت مكتبة الاسكندرية قد نمت نمواً كبيراً وربما وصل حجم المقتنيات إلأى نحو ٧٠٠،٠٠٠ مجلد. وكان هناك ايضاً حريق هائل وقد اشار يوليوس قيصر نفسه إلى هذا الحريق في نهاية مجلده الثالث من كتابه (الحرب الأهلية)؛ وكان يوليوس قيصر هو نفسه الذي أمر باشعال الحريق الهائل في الميناء وذلك لتمير الاسطول والبحرية المصرية التي كانت قد تجمعت هناك مهددة بذلك أمن وسلامة

يوليوس قيصر، وأيضاً لتحول دون وصول الامدادات التي طلبها يوليوس قيصر من روما بنجدته من الحصار المفروض عليه.

لقد كتب كثير من المؤرخين القدامى الكلاسيكيين والجدد المعاصرين وعلى رأسهم بلوتارخ وجيبون أن ألسنة اللهب قد امتدت من الميناء إلى مباني المكتبة لتلتهمها عن آخرها؛ وحتى دائرة المعارف البريطانية تذكر أن ألسنة النار انتشرت عن غير قصد لتدمر المكتبة وتأكل مجموعاتها كلية.

وقد تكررت هذه الرواية حتى ذلك الكتاب الذي نشرته منظمة اليونسكو سنة ١٩٩٠ بثلاث لغات بمناسبة مشروع احياء مكتبة الاسكندرية، تلك المكتبة التي تم افتتاحها في ١٦ اكتوبر ٢٠٠٢م.

وعلى الجانب الآخر هناك من يفند تلك الرواية مؤكداً على ان نيران يوليوس قيصر لا يمكن أن تمتد هذه المسافة الطويلة من الميناء وحتى حي البروكيوم الذي كانت به المكتبة الكبرى (الام)، كما ان المدينة كالها كانت من الحجر والرخام وكانت المكتبة على مسافة كبيرة من شاطئ البحر، كما انه من الثابت تاريخياً وببليوجرافياً ومكتبياً أن المكتبة قد استمرت بعد ذلك التاريخ وذلك الحريق لعدة قرون تالية.

يقول بعض المؤرخين ومن بينهم "جريندور" أن حريق الميناء لم يتعد ارصفة الميناء وبعض المخازن وورش الصيانة التي كانت قائمة في الميناء؛ وكان من بينها مخزن كتب معدة للتصدير أو الشحن إلى روما. بل ويذهب البعض الآخر إلى أن ما كان موجوداً ومعداً للشحن هو شحنات ورق بردي ابيض وليس كتباً تحمل معلومات. وقد اكد بعض الثقاة من بينهم سنيكا ومن بعده أوروسيوس (٤١٠م) أن عدد الكتب أو اللفافات التي احترقت في مخازن الميناء قد بلغ أربعين ألف لفافة (٤٠،٠٠٠ كتاب). ويرى البعض أن هذه الكتب لم تكن بذات أهمية كبيرة أو انها كانت معظمها نسخاً مكررة أو نسخاً تجارية لناشرين تجاريين للبيع في انحاء الامبراطورية الرومانية الوليدة ولم تكن لاعلاقة اصلا بمقتنيات المكتبة؛ وعلى هذا الرأي العديد من المؤرخين والمكتبيين والببليوجرافيين (انظر كانفورا: ١٩٨٩).

عند هذه النقطة وانطلاقاً منها تبدأ القصة الطريفة التي عنونت بها هذا المقال وحيث قام بعض الباحثين بإعداة تصميم السيناريو وربما كان من بينهم بارسونز وروبرت ه. بلاكبورن؛ ذلك أن مكتبة الاسكندرية كانت تعتبر من عجائب الدنيا في ذلك الوقت وكانت بكل تأكيد مزاراً يسعد كليوباترا أن تريه للجنرال يوليوس قيصر ومن ثم دعته إلى غذاء فاخر واحاطته برؤساء الاقسام العشرة في المكتبة ليتحدث كل منهم عن المكتبة وعن القسم الذي يترأسه ثم قام الجنرال بعد ذلك بجولة تفقدية في أرجاء الصرح العظيم مبدياً إعجابه الشديد بالمقتنيات وباعتباره باحثاً مدققاً ومفكراً إلى جانب كونه قائداً عسكرياً فذاً. وبعد الجولة رأت كليوباترا أن تعرض عليه أن يختار أي مجموعة كتب من مقتنيات المكتبة هدية له وبعد تردد وتمنع المؤدبين، أقدم قيصر على اختيار ما راق له من الكتب وسط دهشة مدير المكتبة ومساعديه حيث بلغ ما اختاره رقماً كبيراً؛ ولم تكن لهم حيلة في وقف هذا النزف لمقتنيات المكتبة التي قضوا واسلافهم الجهد والعرق في الحصول عليها وإعدادها واتاحتها للاستعمال. وقد أمرت الملكة أن تعبأ الكتب فوراً ودون ابطاء لتشحن إلى روما بأسرع ما يمكن، ومن هنا كان هناك ٤٠،٠٠٠ لفافة هي كل ما اختاره يوليوس قيصر معبأة وموضوعة في المخازن في الميناء جاهزة للتصدير عندما اندلع الحريق ليلتهمها ضمن ما التهم. بيد أن يوليوس قيصر عندما كتب عن الحريق على النحو المشار إليه لم يشر من قريب أو من بعيد، تلميحاً أو تصريحاً إلى حريق هذه الكتب.

ورغم خفة دم السيناريو الذي وضعه بلاكبورن وطرافته إلا أنه لا يخلو من شيء يدعو للتفكير والتأمل وربما إلى استمرار البحث والتقصي؛ ولنسر وراء هذا السيناريو:

بعد المأدبة الشهية الخاصة التي عقدتها كليوباترا للجنرال ومدير المكتبة وبعد الاستقرار للسهرة الطويلة وتسريحة الشعر الجميلة الجذابة في الليلة الحالمة جلست الملكة الشابة عند قدمي الجنرال وقالت له: جولي (دلع يوليوس) إنك حقاً الأعظم، لقد كنت في كل مكان ورأيت كل شيء وفعلت كل شيء، لقد قهرت كل الدنيا وهزمت كل العالم، إنك قوي وشجاع، بل الأقوى والأشجع؛ وانت اقل وحكيم ومهذب. لقد اخذت كل شيء يريده الرجل وإذا كان هناك شيء تريده مني استطيع أن اقدمه لك فلتقل ما تريد..

كان يوليوس قيصر معتاداً على التملق راغباً فيه منتشياً به بل ويدير رأسه. وقد وجدها الرجل فرصة لا تعوض ولا يمكن تجاهلها فقال لها: " أيها الملاك الصغير الجميل انك تستمرين على الدوام في مفاجأتي، انك كريمة سخية، ان عرضك السخي تشرف كبير لي وسيكون من قلة الذوق والجليطة الا اقبله، هناك شيء واحد يمكنك عمله لي. لقد حلق ما قاله لي المكتبيون عن مكتبتك العظيمة لدى نهماً وجوعاً شديداً إليها..اعطني قضمة كبيرة منها آخذها معي إلى روما..

لقد كان الطلب صدمة كبيرة للملكة الصغيرة وكان عليها ان تفكر في الأمر وتتدبره. لقد كانت المرأة لماحة وذكية حاضرة البديهة سريعة التفكير، وكانت بلا شك قد تلقت قدراً كبيراً من التعليم يليق بها كأميرة مصرية مقدونية، وهي وإن لم يكن لدينا دليل على انها كانت قارءة نهمة إلا أنه كان هناك يقينا ما يدل على حبها للكتب واهتمامها الشديد بالمكتبة ربما لم تزر المكتبة الكبرى كثيراً إلا في صحبة كبار الزوار عندما يفدون إلى مصر، وربما لم تكن تقدر قيمة الذخائر والكنوز التي كانت تنطوي عليها مقتنياتها والقيمة العلمية الاكاديمية لها. ولكن المكتبة كانت في حينها إحدى عجائب الدنيا، وكانت ملكا لها لمكة مصر للسيدة كليوباترا ومن ثم كانت قطعة منها بل وكانت احد رموز قوتها الملكية الكبرى. بهذا كله في رأس الملكة، ردت على يوليوس قيصر قائلة: "جولي لابد وأن تهزر، إنك غير جاد، المكتبة ليس ملكي حتى اعطيها لك، إنها ملك البطالمة لقد بنوها ومقتنياتها عبلا ثلاثة قرون عدداً منذ بطلميوس الأكبر الذي بدأها وقد صبوا لعناتهم على من يتجرأ ويأخذ شيئاً من مقتنياتها، ويأتي العالم كله إلينا هنا ليستخدمها ويفيد منها، وكل الباحثين هنا.

رد يوليوس قيصر قائلاً "ليس كل الباحثين يا عزيزتي..إن زوجتي كالبورنيا تعتقد أنني جندي خشن أجوب الاماكن لأدق الرؤوس وأقطع الاعناق ولكنك تعلمين أنني رجل سلام وباحث دارس مدقق؛ لقد ألفت بالفعل عدداً كبيراً من الكتب الجيدة لعل احسنها على الاطلاق هو ذلك الذي يعالج (الحرب الجاليقية) في سبعة مجلدات تبدأ بالكلمات "إن جاليقيا كل تنقسم إلى ثلاثة أجزاء" ونفس الشيء يمكن أن يقال عن بريطانيا ومصر؛ ومعظم الدول الاخرى التي قمت بزيارتها، وأظن أني يجب أن أكتب اكثر وأكثر عنها وخاصة عن بلدك العظيمة مصر. وعندما استطيع التفرغ للكتابة الجادة فإنني بكل تأكيد سوف احتاج إلى كثير من كتبك التي تتعلق بالتاريخ والحكومة. إنني أود أن اصل إلى وصفة سحرية لشكل معتدل وعادل منالحكومات يجعل الناس كلهم يعيشون معاً في سلام وأمان وبلهنية وفينا يتعلق بلعنة البطالمة التي تتحدثين عنها فأعتقد أنها يمكن أن تتوقف ويبطل مفعولها بإشارة ورغبة من الملكة.."

يبد أن كليوباترا لم تكن لتتحرك بالنبرة العالية او النوايا الطيبة أو الكلمات الشجاعة فردت قائلة: "اسمع يا جولي، حتى لو أعطيتك تلك الكتب الخاصة التي طلبتها فإن شتاء روما الرطب المطير سوف يفسد ويدمر البرديات وتصير إلى لاشيء؛ إنك يجب أن تبقى هنا وتجلس للكتابة والبحث هنا في الاسكندرية معي.."

واستعد يوليوس قيصر للرد محركاً قدمية ولكن بحجة قوية وقال لها: "يا عزيزتي غن جوزتي كالبورنيا كما تعلمين تتخذ موقفاً عدائياً من الأخبار التي ترد إليها هذه الايام من مصر؛ وان اشد ما يقلقها

ويزعجها في كل هذا انها طوال سنين زواجنا لم تستطع ان تنجب لي الابن، او اي طفل وهي تعلم الآن انك على وشك ان تعطيني هذا الابن لو كان حملك في صبي.."

"لقد قال لي اطبائي أنه سوف يكون صبياً ولسوف أسميه "قيصرون" ويمكن أن يكون بطلميوس القادم.." قالت كليوباترا؛ فرد عليها يوليوس قائلاً: " إن كالبورينا يا عزيزتي تدبر مؤامرات قبيحة كثيرة ضدك، وتقلب روما كلها حولك وضدك. ولكن لو أن شعب روما ومواطنيها تلقوا هدية ثرة جداً من الكتب منك عن طريقي ومن خلالي، فإنهم سوف يستقبلونك أحسن استقبال عندما تأتين إلى روما العام القادم، ولسوف تحبط كالبورنيا وأصدقاؤها أيما إحباط ويتوقفون عن إزعاجك..

وربما من هذه الزاوية فقط استطاع يوليوس قيصر تحت اغرائها بزيارة روما بأن يكسب الجولة، ومن ثم وافقت كليوباترا على أن يأخذ الجنرال بعض الكتب التي تدور موضوعاتها حول التاريخ والحكومة. وقد اعتقدت أن هذه التضحية تستحق في سبيل مستقبل أكثر اشراقاً وبهجة لها.

وقام قيصر في اليوم التالي بعمل اختياراته من كتب المكتبة وقد تجاوز مدير المكتبة الصدمة وفكر لتوه في الخطوة التالية التي يجب القيام بها وكان متردداً بين خيط الطاعة لملكته المتهورة وخيط الولاء للصالح الاعظم. لقد تجسد بداخل الرجل تاريخ وعظمة ديمتريوس الفاليري؛ ومن ثم تحمل مخاطرة الولاء للمكتبة الكبرى وعدم الانحياز للدلع غير المسئول للملكة اللعوب، وبحزم شديد فكر في امكانية انقاذ الـ٤٠،٠٠٠ لفافة بردي بخطة محكمة تمنع شحنها إلى روما.

وقد بدأ الرجل خططه بطلب مقابلة فنية مع كليوباترا وقيصر لتبين على وجه الدقة ما هو مطلوب وما هي الخطوات التي يجب أن تتخذ، وقد بدأ باقتراح أن تغلق كل لفافة على حده وتوضع عليها وسيمة تبين هويتها وتعبأ كل مجموعة لفافات معاً في صندوق يوسم هو الآخر بسمة محددة وذلك لتسهيل إعادة الترفيف في روما. وقد رد يوليوس قيصر بان ذلك سوف يستغرق وقتاً طويلاً. ولكن تم الاتفاق أخيراً على أن تعبأ اللفافات في لوطات كل لوط يحوي مائة لفافة وكل لوط يوضع في زكيبة ذات مقاس وحجم معياري وتملأ الزكيبة بقش جاف لحماية المخطوطات، وترقم الزكائب الحقائب بأرقام مسلسلة بنظام يؤكد ترابطها وقد وضعت على كل زكيبة قائمة بمحتوياتها ورتبت بنفس ترتيبها في فهارس المكتبة وقد قضت الخطة بأن يتم تعبئة وإعداد مائة زكيبة كل خمسة أيام تحمل إلى المخازن جافة محجوزة خصيصاً لها بالقرب من أرصفة الميناء. وقد رتب لعملية النقل أن تتم في هدوء وسرية قدر الامكان على ظهور الجمال في جنح الليل وذلك لتجنب إثارة غضب الناس وثورتهم. وفي مخازن الميناء كل كل زكيبة تشمع كلية في الشمع حماية لها من البلل حل النقل في البحر. وكان مدير المكتبة مسئولاً عن كل هذه الاجراءات تحت اشراف الحراس الرومان وكان لابد من الانتهاء من العملية كلها في ظرف عشرين يوماً بمجرد الحصول على المواد المطلوبة.

وبمجرد الاتفاق على هذه الاجراءات قام مدير المكتبة بالاتصال بابن عمه الذي كان تاجراً وصاحب قافلة من الجمال. وكان ابن العم هذا يملك عزبة خلف ال تلال يتبرك فيها جماله ولديه فيها مخازن يخزن فيها بضائعه ومصنع للسروج وعدة الجمل؛ وكان لديه قبيلة من الجمالين لسوق الجمال وكانوا معتادين على القيام بمثل هذه المهام فيس سرية تامة وتكتم ودون ثرثرة أو طرح أسئلة غير شرورية أو تسريب الحكايات والروايات. ولم يكن لهم ولاء إلا لقائدهم فقط ولرخاء القبيلة التي ينحدرون منها.

وقد وافق ابن العم على أن يعد ٤٠٠ زكيبة حقيبة من النوع والحجم والوزن المعياري المناسب مليئة بالقش ومرقمة بنظام وةترتيب ولتكون جاهزة مع الجمال في الوقت المناسب المحدد، وقد قام ابن العم بفتح مخازنه السرية في كهف بعين البرية في حدود ساعة حمل من المدينة في أعماق تل لنصطلح على تسميته "التل ٢٠٢٠"

وطبقاً لهذه الترتيبات في المكان أمر مدير المكتبة مساعديه بالبدء في العمل الممل واطمأن على سير العمل الذي اشرف عليه بنفسه ورأى الهمة العالية والرغبة الصادقة في انجازه على الوجه الاكمل؛ مما جعل الحراس الرومان يطمئنون إليه ويثقون فيه ويغمضون عيونهم.

وفي اليوم الخامس بعد الغسق غادرت أول عشرة جمال محملة بأول مائة زكيبة الجانب الخلفي للمكتبة متوجهة إلى منطقة ارصفة الميناء يتبعها اثنان من الحراس الرومان ومدير المكتبة سيراً على الاقدام، إضافة إلى حارس مسلح في الخلف منهم بعيداً عن الانظار ولكن على مسافة يمكن من استدعائه بالسرعة الواجبة. ومع تقدم المسيرة من خلال الشوارع الخلفية اعترضت طريقهم أسراب اخرى من الجمال المحملة وبعضها في طريقها إلى رحلات صحراوية. ولم يكن الحراس الرومان يدركوا أن الجمال البديلة قد وصلت إلى مخازن الميناء بزكائب محملة فقط بالقش، في الوقت الذي كانت فيه الجمال المحملة بمخطوطات المكتبة في طريقها إلى التل ٢٠٢٠.

وهناك في مخازن كهوف التل ٢٠٢٠ كانت ثمة كميات كبيرة من الشمع لتشميع الزكائب التي تمت تعبئتها بالمخطوطات التي اختارها يوليوس قيصر، وفي خلال شهر واحد كانت المخطوطات الـ٤٠،٠٠٠ قد استقرت آمنة مطمئنة في جوف التل ٢٠٢٠.

وعلى الجانب الآخر كانت هناك ٤٠٠ زكيبة مليئة بالقش تقبع في مخازن الميناء وقد شمعت بالشمع في انتظار شحنها إلى روما، وكانت قد نظمت في ثمانية صفوف مستقيمة كل منها يضم خمسين زكيبة. ويشاء القدر أن تحترق زكائب القش في الميناء ولا تصل إلى روما أبداً وإلا كان الويل والهلاك لو فتحت بعد وصولها ولم يجدوا المخطوطات بها. لقد كان من الضروري أن تحترق كل الزكائب في المخازن لأنه لو بقيت واحدة أو طفت على الماء واكتشف انها خالية من المخطوطات لوصلنا إلى نفس النتيجة ولافتضحت الخطة. مهما يكن من أمر نجحت خطة مدير المكتبة وساعد القدر في نجاحها وتم انقاذ الـ٤٠،٠٠٠ مخطوط وتمت تخبئتها في بطن الكهف بالتل ٢٠٢٠ آمنة مطمئنة؛ وربما بقي سر هذه المخطوطات بين شخصين فقط هما مدير المكتبة وابن عمه الجمّال، وربما كان ذلك من المشكلات التي تصادفنا الآن محاولة العثور على هذه الكنوز المخبوءة.

وربما كانت الخطوة التي تلت تخبئة المخطوطات هي اختيار الوقت المناسب لاستعادتها من الكهف وإعادتها إلى المكتبة الكبرى دون أي تسقط في أيدي الرومان. لقد بقى مدير المكتبة في منصبه منتظراً انقشاع الاحتلال الروماني. ولكن مع مرور الوقت رأى مدير المكتبة ان استعادة الكنز في حياته غير ممكن، ومن ثم ربما يكون قد ترك رسالة شفرية بهذا الأمر يمكن اكتشافها وفك شفرتها في وقت لاحق، على غرار تلك الرسالة الشفرية الموجودة في المخطوطة النحاسية للكنوز المخبوءة بين مخطوطات كهوف البحر الميت في مجتمع قمران؛ وكانت معاصرة لتلك الفترة من حياة مكتبة الاسكندرية القديمة. وربما يكون قد أشرك ابن عمه معه في تلك الرسالة الشفرية. ومهما يكن من أمر ففي قناعتي الشخصية ان كلا الرجلين مدير المكتبة وابن عمه قد توفيا قبل ان يبوحا بسر المخطوطات الـ٤٠،٠٠٠ لفافة الخبيئة في التل ٢٠٢٠.

وعلى الجانب الآخر عاد يوليوس قيصر إلى روما بدون الكتب التي اختارها كمصادر له لكتابة بحوثه، ولم يتسن له الوقت للجلوس للكتابة الحاجة على ما خطط ودبر. لقد كان مشغولاً طول الوقت بالأمور العاجلة والمشكلات التي احاطت به من كل جانب حتى وقت اغتياله في مارس ٤٤ ق.م.

ولابد من التذكير هنا بالملكة كليوباترا التي قامت يقيناً بزيارة روما سنة ٤٦ق.م. مع ابنها بعد ان وضعت حملها وقد اسمته كما وعدت (قيصرون) باعتباره شريكاً لها في حكم مصر. وكان مكتبتها –مكتبة الاسكندرية – ماتزال أكبر واعظم مكتبة في العالم رغم خروج الـ٤٠،٠٠٠ مخطوطة منها. وكانت أيضاً

قد وضعت عيبنيها على ثاني أعظم مكتبة في العالم وزهي مكتبة برجاموم؛ والتي كانت منافساً قوياً لمكتبة الاسكندرية في أسواق الكتب. وقد حاول البطالمة خنق المكتبة ووقف نموها وذلك بحظر تصدير ورق البردي إليها من مصر. وقد أدى هذا الخطر بأهل برجاموم إلى تطوير صناعة الجلود –الرقوق –الأعلى سعراً من البردي. وقد أحنى أهل برجاموم صناعة الجلود هذه وارتقوا بها من جلود الماعز والغنم إلى جلود العجول والغزلان. وقد قدرت المصادر حجم مجموعات مكتبة برجاموم بنحو ٢٠٠،٠٠٠ مجلد، وكانت كليوباترا تواقة للاستيلاء على مجموعات تلك المكتبة.

وقد جاء مارك أنطونيو على إثر خطوات يوليوس قيصر وكان نائبأص له في روما وبعد وفاة قيصر قسمت الامبراطورية بين أنطونيو واوكتافيان ابن اخت قيصر الكبير. وكانت القسمة ظالمة ومليئة بمشاعر البغض من الطرفين. وقد حاز انطونيو الجزء الشرقي من الامبراطورية. وفي حملة خاطفة كاسحة على آسيا الصغرى وصل مارك انطونيو إلى برجاموم والتي كانت تروق لأوكتافيان، ولتوقيع العقوبة القصوى طالب انطونيو بأخذ المدينة كلها وبكافة الاصول الموجودة بها، ومن هنا تحرك باتجاه الجنوب قاصداً الاسكندرية في خريف ٤١ق.م. حيث رحبت به كليوباترا ترحيباً شديداً وحاراً وكان تواقاً لأن يرضيها ومن ثم طلب إلى برجاموم تقديم مكتبتها هدية إلى كليوباترا ومن ثم تم نقل مجموعة ٢٠٠،٠٠٠ مخطوط هي كل مقتنيات مكتبة برجاموم براً أولاً من برجاموم إلى سيمرنا أوأفسوس ثم بحراً إلى الاسكندرية لتثري مجموعات مكتبة الاسكندرية إثراءاً فاحشاً.

في حدود سنة ٤٠ ق.م توفيت زوجة مارك انطونيو –فولفيا- وفي محاولة للصلح مع اوكتافيان تزوج انطونيو اخته اوكتافيا؛ ولكنه في خلال السنوات القليلة التالية أصبح اكثر اندماجاً مع كليوباترا. وقد اهدته ثلاثة اطفال وقد تزوجها سنة ٣٣ق.م وبدأت مع هذا التاريخ في الحصول على ولايات رومانية مختلفة لها ولأسرتها.

وكانت روما قد ثارت ضد هذه الاعتداءات وأعلن أوكتافيان الحرب ضد كليوباترا سنة ٣٢ ق.م؛ وكانت هي ومارك انطونيو قد جمعا قوات غفيرة لمهاجمة روما ولكن اسطولها ضرب ضرباً قاسياً في موقعة اكتيوم سنة ٣١ق.م، وقد هربت إلى مصر ولكن اوكتافيان تعقبها هناك؛ وعندما وصل اوكتافيان إلى الاسكندرية انتحر ماروك انطونيو وتجرعت كليوباترا لدغة الثعبان الذي توفيت بها، حتى لا يقعا اسيرين في يد اوكتافيان. وفي ذلك التوقيت انتهى حكم الأسرة البطلمية الذي دام ثلاثة قرون تقريباً؛ واصبحت مصر ولاية رومانية تحت حكم اوكتافيان الذي تحول إلى امبراطور باسم القيصر (اغسطس) وتحولت روما من جمهورية إلى امبراطورية.

لقد تأثرت مكتبة الاسكندرية يقيناً بمختارات يوليوس قيصر الاربعين ألف مجلد ولكنها يقيناً تم تعويضها بمجموعات برجاموم إليها، واستمرت في النمو والازدهار وزادت المجموعات ربما باتجاه المليون مجلد. وليست لدينا في حقيقة الأمر أرقام يقينية حول كم الزيادة بين الحين والآخر ولكن لدينا معلومات يقينية عن أنها استمرت لبضعة قرون تالية حتى وصلت إلى مصيرها المحتوم. وبعدما اصبحت المكتبة مكتبة إقليمية بدلاً من مكتبة ملكية كان من الطبيعي أن تتقلص ميزانيتها ومكانتها ووضعها الادبي والاكاديمي، وربما أصبح تعيين المديرين بسبب مؤهلاتهم السياسية وليست الاكاديمية، وليس ثمة شك ان مجموعاتها قد عانت شيئاً من البلى والتمزق. ومما يجب أن يذكر في هذا الصدد ان الامبراطور كلوديوس (٤١-٥٤ق.م) قد قام بإضافة جناح باسمه إلى مباني المكتبة (مبنى كلوديان) كما ان الامبراطور دوميتيان فيما يقال أرسل الباحثين والدارسين في بداية حكمه (٨١ ق.م) إلى مكتبة الاسكندرية لنسخ الكتب وذلك لاحلالها محل المجموعات التي احترقت في مكتبة روما.

وقد شهدت مدينة الاسكندرية في القرون القليلة التالية كثيراً من الانتكاسات فقد ارسل عدة اباطرة جيوشهم لاخماد ثورات قائمة بالفعل او محتملة متوقعة. وبعد تدمير بيت المقدس على يد الرومان سنة ٧٠م هاجر اليهود من القدس إلى الاسكندرية وأصبح الحي اليهودي في الاسكندرية هو اكبر مدينة يهودية في العالم. وقد قام الامبراطور تراجان بقمع واخماد ثورة يهودية هناك. وقد قام الامبراطور النسطوري كاراكالا بزيارة مريبة إلى الاسكندرية تحولت مذبحة لكل شباب المدينة. كما قام الامبراطور جاللينوس بحصار المدينة نتج عنه حصد الكثير من الارواح. ومن جهته قام الامبراطور أورليان بحصار المدينة وهدم أسوار الحي الملكي سنة ٢١٧م بيد أن مبنى المكتبة لم يمس على العكس مما قال به كانفورا ووكتاب آخرون. وفي سنة ٢٩٥م أمر الامبراطور ديوقليتيان (اخر امبراطور) باضطهاد المسيحيين واستمر حصاره للمدينة نحو ثمانية أشهر؛ وبعد ان استسلمت المدينة أمر بجمع كل كتب علم الكيمياء وكتب تحويل المعادين الخسيسة إلى معادن ثمينة وحرقها وتدميرها حتى لايتحول المصريون بفضل ذلك إلى اغنياء ومن ثم يدفعهم ذلك إلى ثورة ضد الامبراطورية. وإن لم يتخذ موقفاً من بقية مجموعات المكتبة.

ومن المتفق عليه أن تلك الحملات التي قام بها الاباطرة الرومان مهما كانت دمويتها ومهما كان الدمار غير المقصود الذي أدت إليه فإنها لم تكن حروباً أوغزوات وإنما كانت في غايتها وقوتها تهدف إلى إقرار السلم والامن داخل البلاد. ولم تكن كتلك الحروب التي قام بها الجنرالات الرومان لفتح المناطق المختلفة والتي كانوا عادة ما يستولون على ملكيتها كغنائم وأسلاب على نحو ما فعلوا مثلاً في قرطاجنة وسكبيو وحيث استولوا على المكتبات الملكية فيهما وحملوها إلى روما؛ وعلى نحو ما فعلوا في أثينا حين استولوا حتى على المكتبات الشخصية. لقد أسس لوكوللوس مكتبته الخاصة بأسلاب وغنائم من آسيا الصغرى، لقد كان من بين غنائم وأسلاب سوللا في أثينا بقايا مكتبات أرسطو وثيوفراستوس، هذا عن القادة أما الجنود الغزاة لم يكن من بين اهتمامهم الاستيلاء على الكتب والمكتبات، بل فقط الأموال والممتلكات الثمينة واغتصاب النساء إلا اذا كانت لديهم تعليمات من قادتهم بتدمير مكتبات بعينها.

وفي سنة ٢٩١م أصدر الامبراطور ثيودوسيوس قراره العظيم بتحريم وتجريم عبادة الاوثان والاصنام، مماأوحى إلى ثيوفيلوس بطريرك الاسكندرية إلى قيادة حملة كبيرة لتدمير المعبد الكبير (السيرابيوم) ومن ثم تحويل الثراء الداخلي للمعبد إلى ركام وثم تحويله إلى كنيسة فيها بعد. وليس هناك دليل أو قرينة تقول بأن المكتبة الصغرى أو الابنة التي كانت ملحقة باحد اجنحة المعبد قد مسها بسوء.

وقد ذكرت بعض المصادر ومنها بارسونز أن تدمير مجموعات مكتبة الاسكندرية القديمة قد جاء على يد المسلمين عندما فتحوا مصر فكان ذلك في سنة ٦٤٢م. والقصة المشهورة تقول بأن عمرو بن العاص عندما حاصر الاسكندرية لم يكن لديه السلطة للتعامل مع المكتبة ومن ثم طلب لنصيحة من الخليفة عمر بن الخطاب والذي اشار إليه فيما تقول المصادر الخبيثة بأنه إذا ما كان فيها ما يخالق كتاب الله (القرآن الكريم) ففي كتاب الله غنى عنها، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فتقدم لحرقها. ومن ثم تم توزيع كتب المكتبة على حمامات الاسكندرية لتسخين ماء الاستخدام طيلة ستة شهور على الأقل.

ويرى بعض الثقاة أن القصة برمتها تم تلفيقها خلال فترة الحروب الصليبية للاساءة للاسلام؛ وأن المكتبتين كانتا قد اختفيتا منذ قرون قبل عمرو بن العاص، فقد اختفت المكتبة الكبرى الأم عام ٤٨ق.م واختفت المكتبة الابنة (الصغرى) ٣٩١م ولنا هنا بصدد تفنيد اتهامات من قالوا بحرق المسلمين لمكتبة او دفع المطاعن عن الاسلام وحرصه على العلم وأدوات العلم ومنها المكتبات اساساً.

وفي نفس الوقت لم يكن المسيحيون ليبرأون من حرق المكتبات فقد أشارت المصادر المعاصرة إلى أن أول صليبي دخل بلاد الشام وكانت حملته قد استولت على طرابلس سنة ١١٠٩م ودخل هذا الصليبي (الكونت بيرَّاند) إلى اكبر مكتبات المدينة وتجول في أرجاءها وكلما التقط كتاباً وجده مصحفاً فأمر بإحراق

المكتبة على اعتقاد منه أنها مكتبة للمصحف الشريف فقط. وكانت مجموعات المكتبة في المصادر العربية تبلغ الف الف (مليون) مجلد وفي المصادر الاجنبية مائة ألف (١٠٠،٠٠٠) مجلد. وما فعله صلاح الدين الايوبي بمكتبات الفواطم يندى له جبين المسلمين جميعاً؛ فالتعصب لا دين له ولا جنسية ولا وطن.

وأيا كان الوضع فإن مجموعات مكتبة الاسكندرية القديمة قد بدأت في التشكل مع مطلع القرن الثالث قبل الميلاد وظلت تنمو حتى بلغت الالفية الكاملة من عمرها وربما اكثر من ذلك ولم يصلنا منها شيء رغم انه قد وصلنا من مكتبات أخرى اقدم منها الشيء الكثير. والاحتمال الوحيد كما تحكي لنا القصة العجيبة بل والأمل هو في الـ٤٠،٠٠٠ مجلد التي قام مدير المكتبة في زمن كليوباترا بإخفائها في كهف التل ٢٠٢٠.

وحتى لو كانت المكتبتان –الام والابنة – في زمن يوليوس قيصر أول زعم بحرق المكتبة فهنالك على الاقل تلك المجموعة التي خبئت على مسيرة يوم جمل من الاسكندرية غرباً. هذه المجموعة في انتظار من يكتشفها عمداً أو بالصدفة، تلك الصدفة التي أدت إلى اكتشاف مخطوطات كهوف البحر الميت. هذ الاكتشاف ليس بعيد المنال فقد تم كشف مئات الالاف من ألواح الطين العراقية في العديد من مكتباتها المطمورة في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين، والتي ظلت مطمورة لألفيتين ونصف. لقد تم كشف المكتبة الملكية في نينوى ١٨٥٣م وفي سنة ١٩٨٠م تك كشف المكتبة الملكية في إيبلا السورية والتي تعود هي والارشيف الملكي إلى ٤٢٠٠ سنة مضت ومكتبة رمسيس الثاني ذات العشرين الف لفافة والتي حملها اليهود حال خروجهم ودفنوها في سيناء هي الأخرى في انتظار الكشف.

إنني على قناعة شخصية بأن اصول مخطوطات كهوف البحر الميت اليهودية كانت موجودة في مكتبة الاسكندرية القديمة وأنها قد نسخت عنها، وأن الذي خبأ مخطوطات البحر الميت بعد أن غلفها في أكياس من الكتان، هو الذي خبأ مخطوطات مكتبة الاسكندرية في الكهف ٢٠٢٠ غرب مدينة الاسكندرية بعد أن غلفها بنفس الطريقة.

إن لدي إحساساً عميقاً –ارجو أن يكون صادقاً- بأن قطعة ثمينة من مقتنيات مكتبة الاسكندرية القديمة ماتزال على قيد الحياة في انتظار من يكتشفها ويميط عنها اللثام. وهل يجود علينا الزمن بمحمد الديب المصري الذي تتوه غنماته فيبحث غنها في كهف التل ٢٠٢٠ ولا يجدها ولكنه يجد ما هو اثمن منها الـ٤٠،٠٠٠ لفافة بردي أثمن ما كان في مكتبة الاسكندرية القديمة والتي انتقاها يوليوس قيصر بعناية.

من يدري؟

ربما !!

ممكن!!

شيء من المصادر

١. شعبان عبد العزيز خليفة. الكتب والمكتبات في العصور القديمة.- القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٧.

٢. شعبان عبد العزيز خليفة. مكتبة الاسكندرية القديمة ومشروع إحيائها في الوقت الحاضر.- القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢.

٣. Breasted, J.H. Development of Religion and thought in Ancient Egypt.- New York, 1959.

٤. Budge, A.E. The Literature of the Ancient Egyptians.- London: 1914.

٥. Sperry, J.A. Egyptian Libraries: a survey of evidence.-.in.- Libri.-vol. 7, 1957. pp.145-155.

٦. Wlison, J.A. The Culture of Ancient Egypt.-Chicago, 1951.